

مُعَوِّقَاتُ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَثْرُهَا فِي تَقْوِيضِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ

مُحَمَّدُ الثَّانِي عُمَرُ مُوسَى
جَامِعَةُ بَايْرُو - كَنُو
قِسْمُ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المدخل :

جعل الإسلام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أمةً واحدةً على تعدد أوطانهم واختلاف ألوانهم وألسنتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُرُوبًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُرُوبًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وأمرهم بالاتحاد والالتفاف حول راية القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُرُوبًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وحرّم عليهم التنازع وبَيَّنَ لهم أنه يُفضي إلي الإخفاق والضعف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُرُوبًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وحذّرهم من أن يؤدي بهم الخلاف إلى الفرقة، كما حدث للذين من قبلهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُرُوبًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وأوصاهم إذا تنازعا في شيء أو اختلفوا فيه أن يردّوه إلى الله وإلى ما جاء به الرسول ﷺ، ويأخذوا فيه حكمَ الله وحده، فيُقضَى بذلك على الخلاف والنزاع، وتبقى الوحدة قائمةً والصفوف سليمةً، ولا يكون للأهواء والأغراض من سبيلٍ على المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُرُوبًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُرُوبًا وَابْتَغِ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الشورى: ١٠].

ولقد صنع الإسلام للوحدة الإسلامية كلَّ ما يقتضيه التوحيد، وأقام الوحدة على دعائم ثابتة دائمة لا يتطرق إليها الخلل ما دام المسلمون متمسكين بدينهم حريصين على طاعة ربّهم⁽¹⁾.

ولكن مع ذلك فإنّ هناك كثيراً من المعوّقات تعترض طريقَ هذه الوحدة، وتعمل في نقضها وتحطيمها، كما تعترض سبيلَ المصلحين العاملين لبناء وحدة الأمة وتوحيدها على المنهج الحقّ، أكثرها من صنع

(1) عودة، عبد القادر: الإسلام وأوضاعنا السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى 1401هـ/1981م، (ص 273-274).

أعداء الأمة، وبعضها من عمل الجاهلين بالملة، وسوف نسلط ضوءاً على
أبرز هذه المعوّقات وبيان أثرها في الإخلال بتلك الوحدة المنشودة.

أولاً: الفتنُ الفكريةُ

يشهد هذا العالمُ اليومَ فتنًا كقطع الليل المظلم، في شتى المجالات والميادين، ومن أخطرها، بل أخطرُها الفتنُ الفكريةُ التي تمس تصورات الناس وأفكارهم ومفاهيمهم العقديّة، وهذه الفتن وإن كان كثيرٌ منها يرجع إلى طوائف عقديّة قديمة، إلا أنّها في هذا العصر قد تطوّرت واتّخذت صورًا مختلفة، ووجدت بيئةً مناسبة لانتشارها، وتقبّل الجماهير لها، والتمسك بعقدّها، وقد تعدّدت أسباب هذه الفتن وموجباتها إلا أنّها في الجملة ترجع إلى سببين رئيسيين:

الأول: سوء القصد.

والثاني: الجهل وقلة المعرفة بالدين وأصوله ومقاصده.

فأمّا الفتن التي ترجع إلى سوء القصد وفساد النيّة وسلطان الهوى؛ فهي الفتن التي يروّجها أصحاب الباطل من الخرافيين والعلمانيين، والعصرانيين لطمس حقائق الدين واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإبعاد الأمة من المنبع الأصلي للدين، وهما الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

وأما الفتن التي مرجعها إلى الجهل وقلة معرفة بالإسلام وأصوله ومقاصده، فهي التي ينشرها قاصرو النظر في العلم، ويدفعهم دفعًا قويًا حماسهم الشّدِيد غير المنضبط لهذا الدين وعقيدته وشريعته إلى تبني آراء وأفكار يشذون بها عن السّواد الأعظم للأمة، ويستبيحون بها دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، ويرفعون على الأمة السّلاح. وقد تستغلهم الطائفة الأولى في تحقيق مآربها من توهين الأمة، بل قد يستغلهم أعداء الإسلام تارة في ضرب الأمة وتوهين أصرتها، وتحطيم ما بقي من قوتها ووحدتها.

وكان من كيد أعداء الدين التّحريض على الفتنة، وإيقاد نار الفرقة، وتعميق الخلاف بين المسلمين، وإحياء النّعرات العرقية، وإذكاء النزعة الشّعبية.

ومن كيدهم للإسلام وأهله وضع الأحاديث ونقل الإسرائيليات وأساطير أهل الكتاب وغيرهم.

قال الأستاذ أنور الجندي: «وقد ذهب أغلب الباحثين إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعية من الإسرائيليات، إنما وُضعت عن تدبير وتخطيط وخصومة وكيد، وأنّها من عوامل الحرب الفكرية والعقائدية الضارّة، التي شنّها اليهود وغلاة النّحل المبتدعة على الإسلام والمسلمين بكافة الوسائل من التّخفي

والتسأل والتّمويه، بقصد تمزيق وحدة المسلمين، وتلهيتهم عن دينهم القويم، وتشتيتهم عن صراطه المستقيم.

ويصف بعض الباحثين هذه الظاهرة بأنها ليست إلا حرباً حقيقيةً لكتاب الله، أرادوا بها صرف كل من يقرأ تفسيراً من التفسير عمّا يريد الله في كتابه من هداية البشر إلى حكاياتٍ وأعاجيبٍ وأساطيرٍ تستهوي البسطاء، ثم تتراكم هذه الأساطير، وتعرض حركة الأفهام السليمة⁽¹⁾.

ومن هذا النوع من المكر ترجمة كتب الفلسفة، والأديان المنحرفة، والوثنية وآدابها ممّا كان له الأثر العظيم في انحراف كثير من المسلمين وظهور البدع والفرق الضالة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وأظهر الله من نور النبوة شمساً، طمست ضوء الكواكب، وعاش السلف فيها برهةً طويلةً ثم خفي بعض نور النبوة، فعرب بعض كتب الأعاجم الفلاسفة من الروم والفرس والهند، في أثناء الدولة العباسية.

ثم طُلبت كتبهم في دولة المأمون من بلاد الروم، فعربت، ودَرسها الناس، وظهر بسبب ذلك من البدع ما ظهر⁽²⁾.

وقد دأب المغرضون المعوّقون لوحدة الأمة على «العمل على تبني دعوات ضالة؛ كالقادنية، والبهائية، والادعاء بأنها من حركات النهضة الإسلامية كذباً وبهتاناً، واستعمالها لضرب الإسلام من الداخل.

وتعمل القوى التغريبية جميعاً ممثلة في الاستشراق والتبشير، والغزو الثقافي عن طريق الصحافة والثقافة والمدرسة، إلى تبني هذه الحركات الهدامة واحتضانها وخذاع البلاد الإسلامية.

ومن يُراجع هاتين الدعوتين المُبطلتين؛ البهائية والقادنية يعرف أنهما استهدفتا ضرب حركة اليقظة الإسلامية التي كانت قد قطعت مرحلةً كبيرة في طريق التماس المنابع الأصلية، وجوهر الإسلام، بمفهوم التوحيد الخالص... وأنهما حاولتا بث الفتنة، وزعزعة العقائد، وإثارة الشبهات وإضعاف شوكة

(1) الجندي، أنور: الإسلام والدعوات الهدامة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. الأولى/1974م. (ص236).

(2) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم: مجموع الفتاوى (84/2).

المسلمين، وتثبيط عزائمهم في المكافحة ضد النفوذ الأجنبي، والكيد للإسلام وتضليل المسلمين عن حقيقة عقيدتهم، وتفريق وحدتهم...»⁽¹⁾.

ومن الفتن الفكرية المعاصرة التي عوّقت المسيرة الإصلاحية وكبّلت السعي إلى تحقيق الوحدة بين الأمة، فتن (القوميّات)، وهي أن تعترّ كلُّ قبلية بأصلها، ويفتخر كلُّ شعب بعنصره وطِينته، ويتعصّب كلُّ مواطن لوطنيّته، وارتكزت هذه القوميّات على أسس وأموّرٍ جوهرية تُعارض تعاليم الإسلام وتناهض أصوله وقيمه، من ذلك⁽²⁾ :

أولاً: أن تكون القومية عقيدةً يجب الإيمان بها، والولاء لها، والدعوة إليها، والتعصّب لها، ومعاداة من لا يقبلها ولا يعتنقها... عقيدةً يجب أن يقدم الولاء لها على أيّ ولاءٍ آخر، ولو كان الولاء لله ولرسوله ولكتابه... يجب أن يُغرس حبُّها في أعماق القلوب، وأن يبدأ ذلك منذ نعومة الأظفار، وأن تُفرغ فيها كلُّ العواطف والمشاعر.

يجب أن ينبثق من هذه العقيدة القومية نظام الحكم، وسياسة الدولة، ومناهج التربية والتعليم، ووسائل التنقيف والإعلام، يجب أن يكون اتجاهها جميعاً قومياً صرفاً، وأن تكون صبغتها الوحيدة الصبغة القومية، وأن تُزال أو تُطرد كلُّ صبغةٍ أخرى.

ثانياً: إعلاء الرابطة القومية على الرابطة الدينية، ولهذا ترى دعاة القومية العربية يفضّلون العربيّ غير المسلم على المسلم غير العربيّ، بل إنهم ليجحدون رابطة الإيمان ولا يعترفون بأثرها في العلاقات والسلوك، وهذا يخالف ما جاء به القرآن الكريم: **چ و و و و** [الحجرات: ١٠]، وما جاءت به السنة: «المسلم أخو المسلم»⁽³⁾.

ثالثاً: تفتيت الأمة الإسلامية التي أرادها الله أمّةً واحدةً؛ كما قال تعالى: **چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ چ** [المؤمنون: ٥٢]، **چ ن ن ن ن ن ن ن ن ن ن ن** [آل عمران: ١٠٤].

(1) الجندي، أنور: المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، (ص 37-38).

(2) يراجع: القرضاوي، يوسف: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، دار الشروق، القاهرة، ط. الأولى/1426هـ/2005م، (ص 90-101).

(3) أخرجه البخاري (رقم 2442) ومسلم (رقم 2580) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

١١٠]، چ ف ف ف ف ف [البقرة: ١٤٣] إلى أمِ شتّى، وقوميّات متضاربة، تتنازع على حدودٍ أرضيّة، وتتفاخر بعصبّيات جاهليّة، وتعترّ بغير الأخوة الدينيّة والرّابطة الإسلاميّة التي قرنّها الله في كتابه بالإيمان وجعلها دليّله وعنوانه فقال: چ و و و و [الحجرات: ١٠].

ومنطق القوميّة يجيز للمسلمين أن يُقاتل بعضهم بعضًا، ويسفك بعضهم دماء بعضهم، نتيجةً لتصارع القوميّات المختلفة، كاقنتال العرب مع التُّرك في الحرب العالميّة الأولى بتدبير الإنجليز وتحريكهم، واقتتال القوميّة العربيّة مع القوميّة الكرديّة في العراق وغيرها.

ثانياً: الاستعمارُ وسوءُ أهدافه

إنَّ المستعمرين لم يغزوا العالمَ الإسلاميَّ بهدف الاستيلاء على أراضيه وثوراته وممتلكاته فدَسب، وليس فقط للتحكُّم على الجوانب السياسيَّة للشُّعوب المستعمرة المستكينَّة، أو لاستخدامها كقُوَّة عاملةٍ، إنَّ هذا جزءٌ من أهداف المستعمرين، ولكن هدفهم الأكبر والأولى هو الاستيلاء على قلوب الأمم المستعبدة بتغييرها ونقلها عما هي عليه من التمسُّك بدينها وعقيدتها وراثتها العلميِّ والثقافيِّ والحضاريِّ، ومسخها مسخاً كلياً يدعها بلا دين حقٍّ تتديَّن به، ولا قاعدة أصيلة متينة ترتكز عليها، أو تعودُ بها إلى ملة الكفر و عاداتها، وتلبسها لباساً يجعلها أداة طيِّعةً يسهل التَّحكُّم عليها وتقليبها، والأخذ بكل ما يُملي المستعمر عليها من خيرِه وشرِّه وحُلوه ومُرِّه، وصحِّحِه وسقيمِه.

إنَّ الاستعمار بأهدافه المعلنة وغير المعلنة كان قد وقفَ مُعوقاً كبيراً أمام المصلحين في الأمة وطريقتهم للإصلاح والعود بالأمة إلى ماضيها التليد، وإلى حضارتها المشرقة.

وفي طريقِ محاربة الوحدة الإسلامية: يقول الفُسِّ سِيْمُون: «إنَّ الوحدة الإسلاميَّة تجمع آمال الشُّعوب الإسلاميَّة وتُساعد على التخلُّص من السَّيطرة الأوروبيَّة، والتبشيرُ عاملٌ مهمٌّ في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحوِّل بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلاميَّة».

ويقول لورنس براون Lawrance Brawn: «إذا اتَّحد المسلمون في إمبراطوريَّة عربيَّة أمكن أن يُصبحوا لعنةً على العالمِ وخطراً، أو أمكن أن يُصبحوا أيضاً نعمةً له، أمَّا إذا بقوا متفرِّقين فإنهم يظنون حينئذ بلا وزنٍ ولا تأثيرٍ»⁽¹⁾.

وجاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني اليهودي أو مسَّبي عُو لرئيس حكومته بتاريخ 9 يناير 1938م: «أنَّ الحرب علَّمتنا أنَّ الوحدة الإسلاميَّة هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطوريَّة أن تحذره وتحاربه، وليس

(1) مجموعة من الباحثين : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، ط. الثالثة، 1418هـ، الرياض، (678/2).

الإمبراطورية وحدها بل فرنسا أيضاً، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة»⁽¹⁾.

لقد ربّى الاستعمارُ فريقاً من العلماء والأدباء والساسة من أصحاب الأهواء والأطماع، فكانوا أداةً في يديه لضرب الوحدة الإسلامية، وتقويض أساسها؛ فقد كان من النصائح التي قدّمها (زويمر) المستشرق للمبشرين النصارى قوله: «تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسولٍ من أنفسهم ومن بين صفوفهم؛ لأنّ الشجرة يجب أن يقطعها أحدُ أعضائها»⁽²⁾.

وقد نُفّذت هذه الوصية في البلاد الإسلامية، واستطاع المستعمرون أن يُكوّنوا من العناصر الضعيفة الإيمان قوًى منظمةً تربّت على عين الاستعمار وسمعته، وحُشيت أذهانها بما أملاه أعداء الإسلام، وظلّ الشّعور بالنقص والتبعية للغرب هو إحساسهم الدائم.

وقد اختار المستعمرون أفراداً من هذه القوي صنع حولهم هالات من الأمجاد، وأحاطهم ببطولات وهمية حتى خيّل إلى الشعب المسكين أنّ على أيدي هؤلاء مفاتيح النهضة وبناء المجد والحضارة، فطأطأت لهم الرؤوس حتى تمكّنوا من رقاب الأمة فأذاقوها من الويل والذلّ ما لم تتّله على أيدٍ المستعمر نفسه.

«وليس أدلّ على ذلك من أنّ القوى التي حكمت العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار لم تكن الحركات الجهادية التي جابهت المستعمرين، بل كانت أحزاباً وقوًى مشبوهة تشهد أعمالها وآثارها بأنها جنت على الأمة ما لم يجنّه الأعداء السافرون، مما يُعطي الدليل الواضح على أنّ تنفيذ المخطّط اليهودي قد وُكّل إليهم، مع اختلاف في الأدوار، وتنوع في الإخراج»⁽³⁾.

(1) مجموعة من الباحثين : الموسوعة الميسرة (704/2).

(2) لوشاتليه، الفريد : الغارة على العالم الإسلامي، لخصه ونقله إلى العربية، مساعد اليافي، محب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط. الثانية 1387هـ، جدة، (ص80).

(3) الحوالي، العُلمانيّة (ص542-543).

كما أحيا المستعمرون الدَّعوةَ إلى إثارة العصبية والعنصرية وإعلاء الجنس الأبيض، وذلك في محاولةٍ لفرض النفوذ الاستعماريّ الغربي على الأمم الملوّنة والقول بوصاية زائفةٍ للجنس الأبيض على العالم والبشرية.

كما عمدوا إلى إنكاء رياح الدَّعوة إلى الإقليميات والقوميّات الضَّيقة؛ للقضاء على روح الوحدة الإسلاميّة الجامعة بين الدّول الإسلاميّة.

ولقد استهدفوا إلى إعلاء طابع الاستعلاء الجنسي المغلّق في مواجهة الأمم الإسلاميّة، وخلق طابع الانعزال والانفصال الكاملين في التاريخ والتراث والمقومات الإسلاميّة. واستهدفوا خلق وجودٍ معاصرٍ منفصل تمامًا عن الإسلام وعن العالم الإسلامي، متّصل بالعرب في تفسيراته وقيمه وطوابعه⁽¹⁾.

وحاولوا إحياء الفكر الباطنيّ والوثنيّ والإباحي عن طريق إحياء الفسلفات اليونانيّة، والمسرحيات الإغريقيّة، والأساطير البابليّة، والفكر الغنوصي، وكانت بعض هذه الوثنيّات قد تُرجمت إبَّان العصر العبّاسي وأدخلت إلى مفهوم الإسلام كثيرًا من البلبلة والاضطراب، وقد واجهها المسلمون مواجهةً صارمةً، وكشفوا زيفها، وردوها، وبيّنوا أنّ الفسلفات اليونانيّة ليست إلّا علمُ الأصنام القديم...

وقد تجددت المحاولة في العصر الحديث مرّةً أخرى في محاولة القوى الاستعماريّة والصهونيّة والماركسيّة إلى التّيل من الإسلام، وإعادة طرح هذه المفاهيم مرّةً أخرى من الفكر الباطنيّ والتّصوف الفلّسفي، والاعتزال، والمجوسيّة، وغيرها؛ لإغراق شباب المسلمين في هذه السّموم وحتى يحال بينهم وبين مفهوم التوحيد الخالص، بما يؤدي إلى توهين روح الصمود في نفوس المسلمين، وتفسيح القيم الخلقية الإسلاميّة بالدعوة إلى إذاعة المجون، والمجاهرة بالخلاعة والانحراف الجنسي...⁽²⁾.

(1) الجندي، أنور: المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، دار الاعتصام (بدون تاريخ)، (ص34-35).

(2) الجندي: المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، (ص38).

ثالثاً: التبعية للمعسكرات الغربية والشرقية

وقعت الشعوب الإسلامية في خضم غيبوبتها عن الإسلام ضحية كثيرة من الأفكار الوافدة؛ كالشيوعية، والرأسمالية، والوجودية، والاشتراكية، والديموقراطية، والناصرية، واليسارية، والعلمانية، والحادثة وغيرها. وانساق الجماهير المسلمة وراء هذه الشعارات كانساق القطيع حسب توجيهات الراعي، فانضمت إلى مختلف الأحزاب التي رفعت تلك الشعارات، وأفرغت جهودها العقلية والنفسية والبدنية والمادية في دعمها والدود عنها، حتى أريق في سبيلها الدماء، وتقطعت بسبها الأرحام⁽¹⁾.

اتخذ الغرب المستعمر الزاحف التعليم والتربية وسيلته الأولى في التأثير والتغيير الذي ينشده، وقد ركز نشاطه في هذا الجانب على كل الجهات والمستويات سالكا إلى غايته طرقا شتى، منها: البعثات إلى الغرب، وهم الطلاب الذين يوفدون في بعثات إلى ديار الغرب، ليحصلوا العلوم الأوروبية الحديثة فيما يزعمون، والتي اقتبسوا جذوتها الأولى من المسلمين في الأندلس وغيرها، وقد حرص المستعمر المتحكم على أن يجعل أكثرية المبعوثين إلى دياره يدرسون الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية؛ لأنها هي التي تصنع للإنسان أفكاره وقيمه ومواريه، وذوقه واتجاهه وسلوكه، هذا مع أن الذي كانت تحتاج إليه البلاد في ذلك الحين - قبل كل شيء - هو العلوم المحضة والعلوم التطبيقية التي يترتب على التفوق فيها الرقي الصناعي، والنمو العمراني، والتقدم العسكري، والازدهار الاقتصادي، ولكن المستعمرين الماكرين أصروا على أن يحتكروا هم هذا الجانب المهم لتظل البلاد في حاجة دائمة إلى خبرائهم ومعوناتهم، ولتظل سوقا مفتوحا لبضائعهم ومصنوعاتهم، فتؤخذ منها (المواد الخام) بأبخس الأثمان، ثم تُرد إليها سلعا تباع بأعلى الأسعار.

ولا غرو إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب، يذهبون إليه شرقيين مسلمين ويعودون - إلا من عصم الله - متغربين "علمانيين" "لا دينيين"

(1) الدلال، سامي محمد صالح: القواعد الشرعية لإدارة الصراع الحضاري، المركز العربي للدراسات الإنسانية، ط. الأولى 1429هـ/2008م، (ص38-39).

لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرّسمي، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم، ونظرتهم إلى الدّين وإلى الحياة وإلى النّاس، وإلى الماضي وإلى الحاضر، وإلى النّظم والشّرائع وإلى الآداب والتّقاليد، وبدا ذلك واضحاً في سلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم ، وفيما يكتبون وينتجون في ميدان الفكر والثّقافة والتّوجيه⁽¹⁾.

«لم يكن هم المستعمر الدخيل في أوّل الأمر أن يوجه عمله إلى الشّعب ليزحزحه عن دينه، ويشكّكه في منهجه الإلهيّ، فيهيّجه على حكمه، ويحرّضه على مقاومته، بل ترك الشّعوب في غفلاتها، ووجه أكبر همه إلى تكوين قادة للمستقبل، قادة يصطنعهم لنفسه، ويصنعهم على عينه، ويربّيهم في أحضانهم، ويغذيهم بثّقافته وأفكاره، ويغرس فيهم الخضوع عن طواعية لنظمه وتقاليد، والتّقدّيس لمناهجه وفلسفته⁽²⁾.

إنّ صناعة هذا الجيل الذي سيقود السّفينة فيما بعد، ويقبض على زمام التّوجيه والتّثقيف والتّربية والإدارة والسّياسة والتّشريع، كانت أهمّ ما عني به الخبيث ، وكان النّجاح في صناعته أعظم نصر حقّقه في المعركة بينه وبين الشّرق الإسلاميّ، منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتّى اليوم⁽³⁾.

(1) القرضاوي، يوسف بن عبد الله: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، مكتبة وهبة، ط. الخامسة 1413هـ/1993م، القاهرة، (ص18-19). وللكشف عن دسائس هؤلاء في هذا الدين، فاقراً في هذه الكتب: (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) و(الإسلام والحضارة الغربية) و(حصوننا مهددة من داخلها) كلها للدكتور محمد محمد حسين رحمه الله ، وكتاب (أعلام وأقزام في ميزان الإسلام) للدكتور سيد حسين العفاني.

(2) انظر: العقاد، عباس محمود: الإسلام والحضارة الإنسانيّة، المكتبة العصرية، (بدون تاريخ)، بيروت، (ص110-115) لتقف على مثل هذه المحاولات في (نيجيريا) من قبل المستعمر البريطاني التي باءت بالفشل جزئياً ولم يتمّ له ما أراد كما ينبغي.

(3) القرضاوي: الحلول المستورة، (ص16).

رابعاً: فساد الإعلام

إن الإعلام سلاح ذو حدين؛ يُستعمل في الخير ونشره، والدعوة إلى الحق وإعلائه، وتوعية الأمة وتنقيتها، فهو منبر – إن أريد له ذلك - لإشاعة النور، وتبديد الظلام، وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، منبر يعتليه الداعية بدعوته، والسياسي بسياسته، والأديب بأدبه، والعالم بعلمه، والفنان بفنه.

ومن جهة أخرى: يُستعمل الإعلام في الشر ونشره، والدعوة إلى الباطل وإبرازه، وإفساد الأمة وتضليلها، وتغيب الحقائق وتشويهها. فهو منبر – إن أريد له ذلك – لتزيين الباطل وتشويه الحق، يعتليه السياسي الماكر بمكره، والداعية المبطل بباطله، والأديب الماجن بمجونته، والفنان الفاسد بفساده.

إن في الإعلام منافع وآثاما، وآثامه وأضراره على الأمة اليوم أكبر من منافعه؛ إذ غلب عليه الفساد والفجور، وصار أداة لقمع الحق وتشويه صورتها، وتزيين الباطل وإشهاره، وأصبح وسيلة لمحاربة المصلحين وإظهارهم بمظهر المفسدين في الأرض، سائراً على طريقة فرعون وقاعدته: **چ ع ع ك** [غافر: ٢٩].

إن فساد الإعلام اليوم قد طال كل شيء، وخطره فاق أخطار الأسلحة الفتاكة المدمرة، فإن فساده يصل إلى كل مكان، ويحيط بكل أسر، ويطل الذكر والأنتى، والصغير والكبير، والشباب والشيوخ، والمتقنين والعامّة، حتى صار سداً منيعاً بين كثير من الناس وبين رؤية الحقيقة كما هي، فأصبح كذبُه بكثرة التكرار صدقاً، وشكُّه يقيناً، وباطله حقاً. فهو اليوم أكبر عائق أمام الدعاة المصلحين في مسيرتهم الإصلاحية، يهدم ما يبنون، ويدمر ما يُعلون، ويقوّض ما يرفعون:

متى يبلغُ البنيانُ يوماً تمامه إذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدم
وقضيةُ توحيد الأمة من أكبر ما يُشغل بال المصلحين اليوم، إذ إن التمكين والنصرَ منوطٌ به، والقوة والعزةُ كامنَةٌ فيه، كما قال تعالى: **چ پ پ پ پ پ** [الأنفال: ٤٦].

وحاملُ دعوة الإصلاح لا يمكن أن ينتصرَ وتكونَ لدعوته تأثيرُها حتى يتأيّد بتأييد الله، ثم بتأييد المؤمنين، فكما أن تأييد الله لا يأتي إلا من طاعة الله ورسوله، فكذلك تأييد المؤمنين فيما بينهم لا يتأتى إلا بوحدتهم وتكافلهم وتآزرهم، وتوادهم وتراحمهم، قال تعالى: **چ پ پ پ پ پ** [الأنفال: ٦٢].

العالمية) ... وكذلك تسليط الأضواء على أهل هذه المجالات وتقديمهم إلى المشاهد أو المستمع أو القارئ، باعتبارهم النجوم اللامعة أصحاب القدوة الصالحة... وفي المقابل تتوارى بقيّة المجالات، وخاصّة المجال الديني، حيث لا تُعطي له إلا مساحة ضئيلة لا تكاد تذكر، وفي الوقت نفسه لا روح لها ولا تأثير، حيث أريد لصفحات الفكر الديني في الصّحف وللبرامج الدينيّة في الإذاعة والتّلفاز أن تتناول موضوعاتٍ محدّدة، لا صلة لها بالواقع الذي يعايشه المسلم، مما يجعلها باهتةً ضعيفةً التّأثير إن لم تكن معدومةً التّأثير أصلاً⁽¹⁾.

(1) انظر: أبو شبانة ، ياسر : النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، دار السلام ، ط. الأولى 1998م، 1418هـ، القاهرة، (ص697-698).

خامسًا: الحرص على الرئاسة والمناصب

من الآفات التي تُصيب الصّدر وتمرض القلب أن يحبّ المرء الشهرة والرئاسة، ويحرص عليهما حرصًا شديدًا، بحيث يلجأ إلى كلّ سبيل للوصول إليهما، وفي المقابل يحزن أشدّ الحزن لفقدهما، ويحقد ويعادي كلّ من سلب منه هذا الأمر أو تسبّب فيه.

ولا شكّ في أنّ حبّ الشهرة والرئاسة مرضٌ خطير، وآفة مهلكة، لذا فقد رهّب منها الرّسول ﷺ ترهيبًا شديدًا حيث قال: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة»⁽¹⁾.

فإذا كان هذا الوعيد في مجرد لبس الثوب، فكيف بغيره من الأمور التي هي أعظم، وأكبر منه، مما يقع فيه المرء من أمور الشهرة؟! ولهذا فقد كان السلف الصالح رحمهم الله يخافون من الوقوع في هذا الأمر، ويحذرون إخوانهم من الوقوع فيه.

فقد كان الإمام إبراهيم النخعي رحمه الله يتوقّى الشهرة، فكان لا يجلس إلى أسطوانة، وكان يجلس مع القوم فيجيء الرجل فيوسّع له، فإذا اطرّبه المجلس إلى أسطوانة قام⁽²⁾.

وقال صفوان بن عمرو رحمه الله كان خالد بن معدان الكلاعي إذا عظمت حلقتة قام فاندصرف، فقيل لصفوان: ولم كان يقوم؟ قال: كان يكره الشهرة⁽³⁾؟

ويقول إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «ما صدّق الله عبدًا أحبّ الشهرة»⁽⁴⁾. وكان الإمام بشر بن الحارث الحافي رحمه الله يقول: «ما اتقى الله من أحبّ الشهرة»⁽⁵⁾.

(1) سنن ابن ماجه (رقم 3606) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(2) ابن الجوزي: صفة الصفة (88/3).

(3) ابن الجوزي: المصدر السابق (215/4).

(4) ابن مفلح: الآداب الشرعية (344/2).

(5) ابن الجوزي: المصدر السابق (325/2).

وكما رَهَّبوا من الوقوع في الشَّهرة، وحذروا منها نَجدهم كذلك كانوا يُرَهَّبون من حرص المرء على طلب الرِّياسة، والسَّعي إليها، لأضرارها المتعددة على الفرد والمجتمع.

فطالب الرياسة إذا لم تحصل له لوحده وقع في عدد من الأمور التي تسبب الحقد والبغضاء كالحسد، وتتبع عيوب الناس وإبرازها، ويكره أن يذكر أحدا بخير مهما كان له من الفضل والمكانة.

قال الفُضيل بن عياض رحمه الله : «ما من أحد أحبَّ الرِّياسة إلا حَسَدَ، وبَغَى، وتتبع عيوب النَّاسِ ، وكره أن يذكر أحداً بخير»⁽¹⁾.

وحب الرياسة ليس محصورا في أمور الخلافة والإمارة، بل يدخل حتى في أمور العلم، ولهذا قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: «من طلب الرياسة بالعلم قبل أوانه لم يزل في ذلٍّ ما بقي»⁽²⁾.

وحرصُ بعض النَّاسِ على الرِّياسة قد يفوق حرصهم على المال وجمعه، ويسعى طالبُ الرِّياسة إلى البحث عن عيوب الآخرين، والخط من أقدار النَّاسِ، والطعن في أعراسهم؛ يقول الإمام أحمد رحمه الله⁽³⁾ : «حُبُّ الرِّياسة أَعْجَبُ إِلَى الرَّجُلِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَنْ أَحَبَّ الرِّياسةَ طَلَبَ عُيُوبَ النَّاسِ أَوْ عَابَ النَّاسِ».

وقد يحمل بعض النَّاسِ حرصهم على الرِّياسة ونيلها على التَّلبس بين الحق والباطل، وارتكاب العظام في سبيل تحصيل مرادهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وطالب الرياسة – ولو كان بالباطل – تُرضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلا، وتُغضبه الكلمة التي فيها ذمّه وإن كانت حقا»⁽⁴⁾.

(1) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط. الأولى 1414هـ/1994م، (569/1).

(2) ابن مفلح: الآداب الشرعية (112/2).

(3) ابن مفلح : المصدر السابق (341/2).

(4) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (559/10).

وقد يحملهُ حُبُّ الرئاسة على تفريق الصفِّ، وإشاعة الفرقة والبعضاء بين الأمة، إذا رأى أنّ ذلك يساعده على تحقيق مراده، وأنّ تآلف الناس وتعاضدهم يعوقه دون الوصول إلى مبتغاه، على غرار قاعدة (فَرَّقْ تَسُدْ)، فيؤصل روح العصبية بين القبائل، والتعصّب بين المذاهب والطوائف، ولو أدّى ذلك إلى وقوع البلاد في حربٍ أهليّة دامية، وتضعع الأمن، وسيادة الفوضى، ودروس العلم وضمك المعيشة.

«وما كانت الحركات الانفصاليّة عن دولة الخلافة العباسيّة إلا نتيجة استبداد شهوة السّلطة بنفوس حكام الولايات، فأعلنوا الاستقلال عن الدّولة المركزيّة في بغداد. وهل ينسى أحد أنّ الثورة العربيّة الكبرى ضدّ دولة الخلافة العثمانيّة كانت بسبب شهوة السّلطة في نفس من كان يُدعى بـ (الشّريف حسين) أمير مكة المكرمة الذي ظلّ البريطانيون يلعبون على هذا الوتر في نفسيّته حتى حصلوا منه على ما يريدون؟!»

وعلى هذا تقف شهوة السّلطة الزّمنية حائلاً منيعاً في وجه الوحدة الإسلاميّة، حيث لا يرغب أحد في التّضحية بسلطانه وصولجانه من أجل الوحدة الإسلاميّة المنشودة⁽¹⁾.

(1) أبو شبانة، ياسر: النظام الدولي الجديد، (ص745).

سادساً: أثر الانفرادية في وحدة الأمة

إنّ العمل الجماعيّ ركيزةٌ من ركائز الوحدة الإسلاميّة، فما قامت وحدة الإمة المسلمة الأولى إلا على وحدة الهدف والعمل، وليس يعني هذا أنّ كلّ عمل لا بدّ أن تشترك جميع الأمة في القيام به وإنجازه، بل هناك فروض عينيّة تجب على كلّ مسلم بعينه، وهناك فروض أي واجبات كفاييّة، إذا قام بها البعض، سقطت عن الباقين.

وإنما المراد أن تكون الأمة تسير في عملها وفق الخطة المرسومة المؤدية إلى امتزاج روح الجماعة في العمل والهدف، فالمؤسسات الإسلاميّة المختلفة المنتشرة لا بد أن تسير أعمالها سيراً يوافق خطة توحيد الأمة، ويشترك أفراد كلّ مؤسّسة في تخطيطها والإشراف عليها وإنجازها. وكذلك الجمعيات الإسلاميّة المتعددة لا بد أن تكون برامجها سائرةً نحو الأهداف التي تقويّ بناء الأمة الواحدة، وتشترك مع غيرها في الهدف الأساس والغاية.

والعمل الفردي إن كان مما يصبّ في مصلحة الجماعة ويقوي دور الأمة ونهضتها لا غضاضة فيه ولا حرج، ولكن عندما ينفصل الفرد عن الجماعة الأمّ، ويؤسس لعمله بعيداً عن روح الفريق والجماعة وأهدافها، مخنقاً به عنها، فإن ذلك لا ينصر قضية الوحدة، بل هو نقيضها تماماً، وكم جرّ فرداً أو أفراد على الأمة ويلات ومصائب بأعمالهم الفرديّة التي قامت بعيدة عن مؤسّسة العلماء والفقهاء وأهل الحلّ والعقد.

كان الجيل الأوّل من الصّحابة - رضوان الله عليهم - على فهم عميق بمقاصد الإسلام ومراميه في إصلاح البشر، وكانت الأمة يومها في حالة إنشاء وتأسيس وتيقظ واندفاع، فهي تقوم بالأعمال الحضاريّة بصورة عفويّة تأتي من طبيعة الإسلام نفسه.

في مثل هذه الأجواء قام الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بعملٍ علميٍّ كبيرٍ يؤكّد حديث رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الرّاشدين المهديين من بعدي..»⁽¹⁾.

(1) أخرجه أحمد في مسنده (رقم 17142)، وأبو داود في سننه (رقم 4607)، وابن ماجه (رقم 43) وغيرهم، عن العرباض بن سارية، رضي الله عنه.

لقد خشى عثمان رضي الله عنه من تفرق المسلمين واختلافهم في قراءات القرآن، فعزم على جمعهم على مصحف واحد، وشكّل لهذا الأمر لجنةً علميةً من: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسأل عن أفصح هؤلاء، فقيل له: سعيد بن العاص، فقال: «فَلْيُمْلِ سَعِيدٌ وَلْيَكْتُبْ زَيْدٌ»⁽¹⁾.

وقال لهم أيضاً: «إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم»⁽²⁾.

وقامت هذه اللجنة بمهمتها - وربما تكون أول لجنة علمية في الإسلام - وأرسلت المصاحف إلى الأمصار، واجتمع الناس على مصحف إمام.

أليس هذا عملاً عظيماً، وهو من صميم حضارة الإسلام؟ وإن عمل هذه اللجنة يلفت نظرنا إلى ما عليه حال المسلمين اليوم من البعد عن الأعمال الجماعية والعلمية بخاصة، حيث تجتمع الطاقات وتحشد الجهود، ويستفيد كل واحد من الآخر، والسبب في هذا أنه لم تترسخ عندنا المؤسسات العلمية التي تقوم على الجهد المشترك لإخراج أعمال لا يستطيع الفرد أن يقوم بها، وإن فعل فسيكون إنتاجه ضعيفاً.

إن التخلف الحضاري الذي نعيشه والذي ورثناه يبعدنا عن العمل المؤسسي، فالفردية متأصلة فينا، ويصعب على الفرد أن يشاركه غيره في عمل علمي؛ لأنه لم يتعود على الحوار والمشاركة، وسماع وجهات النظر الأخرى.

إن الأعمال والجهود المتعاونة إذا كانت ضمن منهج علمي واضح ستؤدي إلى نتائج يتفق عليها الجميع.

(1) انظر: ابن شبة، زيد بن عبيدة النميري: تاريخ المدينة، تحقيق فهم محمد شلتوت، نشر عام 1399م، (994/3)، والبغوي، الحسين بن مسعود: شرح السنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الثانية، 1403هـ/1983م (542/4).

(2) أخرجه البخاري (رقم: 3315، 4699، 4702).

الخاتمة

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المستعمرون من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين لكنهم لهم ينجحوا في تمزيق قلوبهم وظل المسلم محباً لأخيه المسلم ولسان حال كلّ منهم يقول:

لو اشتكى مسلم في الصّين	أو اشتكى مسلم في الهند
أرّقــــــــــــــــــــاني	أبــــــــــــــــــــكاني
فمصرُ ريحانتي والشّام	وفي الجزيرة تاريخي
نرجســــــــــــــــتي	وعنــــــــــــــــواني
وفي العراق أكف المجد	عن كل باغ ومأفون وخّوان
تــــــــــــــــرفــــــــــــــــعــــــــــــــــني	في القلب لا شك أرعاه
ويسكن المسجد الأقصى	ويــــــــــــــــرعــــــــــــــــاني
وقــــــــــــــــبــــــــــــــــبــــــــــــــــته	وأستريح إلى ذكرى خراسان
أرى بخارى بلادي وهي	لنا مقاماً بإحسان وإيمان ⁽¹⁾
نــــــــــــــــائــــــــــــــــية	
شريعة الله لمت شملنا وبنت	

(1) النعمة، إبراهيم: الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، مطبعة الزهراء الحديثة، ط. 2001425م، ص 24.

فهرس المصادر والمراجع

- (1) البخاري، محمد بن إسماعيل : الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، دار الكتب العلمية، بيروت. ط. الأولى. (بدون تاريخ).
- (2) البغوي، الحسين بن مسعود: شرح السنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط. الثانية، 1403هـ/1983م.
- (3) بو شبانة ، ياسر : النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ط. الأولى 1998م، 1418هـ.
- (4) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم العصمي النجدي بمساعدة ابنه محمد، تصوير عن ط. 1398هـ - دار الإفتاء، الرياض.
- (5) الجندي، أنور:
 - الإسلام والدعوات الهدامة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. الأولى/ 1974م.
 - المد الإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر، دار الاعتصام (بدون تاريخ).
- (6) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: صفة الصفوة، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر.
- (7) ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل: المسند، تحقيق مجموعة من الباحثين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى/1413هـ .
- (8) الحوالي، سفر بن عبد الرحمن: العُلَمَانِيَّة: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، مكتبة الطيب، القاهرة، ط. الثانية، 1420هـ/1999م.
- (9) أبو داود، سليمان بن الأشعث: السنن، ، تعليق عزت عبيد الدعاس، ودعاء السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى/1388هـ .
- (10) الدلال، سامي محمد صالح: القواعد الشرعية لإدارة الصراع الحضاري، المركز العربي للدراسات الإنسانية، ط. الأولى 1429هـ/2008م.

- (11) ابن شبة، زيد بن عبيدة النميري: تاريخ المدينة، تحقيق فهم محمد شلتوت، نشر عام 1399م.
- (12) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط. الأولى.
- (13) العقاد، عباس محمود: الإسلام والحضارة الإنسانيّة، المكتبة العصرية، (بدون تاريخ)، بيروت.
- (14) عودة، عبد القادر: الإسلام وأوضاعنا السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الأولى/1401هـ/1981م.
- (15) القرضاوي، يوسف بن عبد الله:
- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، مكتبة وهبة، ط. الخامسة 1413هـ/1993م، القاهرة.
 - من أجل صحة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، دار الشروق، القاهرة، ط. الأولى/1426هـ/2005م.
- (16) قطب، محمد: واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة ، السعودية، ط. الثانية 1408هـ/1988م.
- (17) لوشاتليه، الفريد : الغارة على العالم الإسلامي، لخصه ونقله إلى العربية، مساعد اليافي، محب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط. الثانية 1387هـ، جدة.
- (18) ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني: السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، (بدون تاريخ).
- (19) مجموعة من الباحثين : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، الرياض، ط. الثالثة، 1418هـ.
- (20) مسلم بن الحجاج النيسابوري: الصحيح، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة. ط. الأولى/1412هـ.
- (21) ابن مفلح، محمد بن مفلح بن محمد: الآداب الشرعية، عالم الكتب، بيروت، (بدون تاريخ).
- (22) النعمة، إبراهيم: الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، مطبعة الزهراء الحديثة، ط. 1425هـ/200م.